استدراك وتعليق

ونظرة إلى تاريخ بني العباس

— ١٠ —

الراشد بالله (١) :

مولده سنة ٥٠٢ — خلافته سنة ٥٢٩ (١١٣٥ م) — خلعه سنة ٥٣٠ (١١٣٦ م) — مقتله ٥٣٢ هو أبو جعفر المنصور بن المسترشد .

---

(١) كان فصيحاً شجاعاً سمحاً ، حسن السيرة يُؤْثر العدل ، ويكره الشر . قالوا كان شاعراً ولم أطلع على شيء من شعره .

خلعه السلطان مسعود السلجوقي ، بعد أن كتبوا محضراً ، بما كان منه من الظلم ... (كذا) وأخذِ الأموال ، وسَفْكِ الدماء ، وشُرب الخمر . واستفتوا الفقهاء ، في من فعل ذلك : هل تصُح امامته ، وهل إذا ثبت فِسقُه ، يجوز لسلطان الوقت أن يخلَعَه ، ويستبدل خيراً منه ؟ فأفتوا بجواز خلعه .

فانظر ! بين ما وُصِف به من حسن السيرة ، وإيثار العدل ، وبين ما قيل فيه ، في هذا المحضر .

وهي صورة تمثل أفاعيل السياسة ، في الأمس واليوم ، وكيف كان خليفة الله ، وإمام المسلمين ، آلة بيد السلطان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المقتفي لأمر الله (١) :

مولده سنة ٤٨٩ — خلافته سنة ٥٢٩ (١١٣٦ م) — وفاته سنة ٥٥٥ (١١٦٠ م) هو أبو عبد الله محمد بن المستظهر .

---

(١) بويع بالخلافة على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر . وكان السلطان مسعود قد أخذ جميع ما في دار الخلافة من دوابّ وأثاث ، وذهب وستور ومُرادق . ولم يُترك في اصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس ، وثمانية بغال ، برسم الماء . وعاد السلطان فأخذ جميع تعلق الخليفة ، ولم يبق له إلا العقار الخاص ، ثم بعث يطلب منه مئة ألف دينار .

فقال المقتفي : ما رأيت أعجب من أمرك ! أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله ، فجرى ما جرى ، وأن الراشد وليّي ، ففعل ما فعل ، ورحل وأخذ ما تبقى . ولم يبق إلاّ الأثاث ، فأخذته كلّه ، وتصرفت في دار الضرب ، وأخذت التركات والجتوالي . فمن أي وجه نقيم لك هذا المال ؟! وما بقي إلاّ أن نخرج من الدار ونسلمها ، فأني عاهدت الله ، أن لا آخذ من المسلمين حبةً ظلماً .

ويوم قدم السلطان مسعود بغداد ، عمل دار ضَرْب . فقبض المقتفي على الضرّاب ، الذي أقام دار الضرب . فقبض مسعود على حاجب الخليفة . فغضب الخليفة ، وغلّق الجامع والساحة . فأطلق السلطان الحاجب ، فأطلق الخليفة الضرّاب . وسكن الأمر .

ثم إن أمْرَ السلطان أخذ بالضعف ، لاستيلاء الأمراء على غلات البلاد وعجزِ السلطان عنهم ، فتضعضع أمرُه ، فتمكّن الخليفة المقتفي عندئذ ، وعلت كلمته ، فارتفعت حرمته ، وعادت بغداد والعراق إلى يده ، لا يجري أمرٌ وإن صغُر إلا بتوقيعه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المستنجد (١) :

مولده سنة ٥١٨ — خلافته سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) — وفاته ٥٦٦ (١١٧١ م) من شعره :

عيّرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيّرت بما هو عار

ان تكن شابت الذوائب مني فالليالي تَزينها الأقمار

وله — البيتان اللذان بنينا عليهما هذا المقال ، وقد سبق أن أشرنا إليهما .

وباخل أشعل في بيته تكرمةً منه لنا شمعة

فما جرت من عينها دمعة حتى جرت من عينه دمعة

ومما نسب إليه ، قوله في وزيره ابن هُبيرة (٢) : وقد رأى منه ما يعجبه في تدبير مصالح المسلمين :

(١) هو ابن المظفر يوسف المقتفي . أمه أم ولد كرجية ، وقيل : رومية اسمها طاووس وقيل نَرجِس . كان المستنجد موصوفاً بالعدل والرفق . أطلق من المكوس شيئاً كثيراً . وكان شديداً على المفسدين .

قال ابن الجوزي : كان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب ، والرأي الصائب ، والذكاء الغالب . له نظم بديع ، وفكر بليغ ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والاسطرلاب وغير ذلك .

(٢) ابن هبيرة ، وكان لقبه جلال الدين إلى أن ولي الوزارة فلقب عون الدين ، ولما جهزوا له التشريف على عادة الوزراء ، فلبسه ، ثم استُدعي ، فقبل الأرض ودعا بدعاء أعجب الخليفة . ثم أنشد قول الصولي :

سأشكر عُمري ما تراخت منيتي أيادِيَ لم تَمنُن وان هي جلّت

رأى خَلّتي من حيث يخفى مكانها فكانت بمرأى منه حتى تجلت —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ضفت نعمتان خصّتاك وعمّتا فذكرهما حتى القيامة يؤثر
وجُودك والدنيا إليك فقيرةٌ وجُودك والمعروف في الناس منكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفرٌ ويحيى لكنّا عنه يحيى وجعفر
ولم أرَ من ينوي لك السوء يا أبا المظفرِ الاّ كنتَ أنت المظفر (كذا)

والبيتان الأولان من هذه الأبيات الأربعة لابن حيوس من قصيدة يمدح بها نصر بن محمود بن بني مرداس . ومطلعها :

هل العدل الاّ دونَ ما أنت مظهر أو الخيرُ الاّ ما تُذيع وتضمر

الخلاصة

الخلافة العباسية : عاشت هذه الخلافة ثمانية قرون (٧٧٩) سنة ، منها (٥٢٤) سنة في بغداد . تولاها (٣٧) خليفة . أولهم أبو العباس عبد الله ، ولقبه السفاح . وآخرهم عبد الله المستعصم . ومنها (٢٥٥) سنة في مصر . تولاها (١٥) خليفة ، وجعلهم بعضهم (١٧) ، أولهم أبو القاسم أحمد ولقبه المستنصر ، وآخرهم أبو عبد الله محمد ولقبه المتوكل .

ـــ والأصل : « فكانت قذى عينيه حتى تجلت » .

وأهمل البيت الثاني وهو :

فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه ولا مظهرُ الشكوى إذا النعل زلت

غيّر وبدّل تأدباً بالنسبة إلى مقام الخلافة والخليفة . فأعجب بذلك كل من حضر . ولابن هبيرة التآليف الحسان في العلم واللغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخذه السلطان سليم العثماني معه من مصر — بعد أن احتلها — إلى الاستانة . فأقام بها أربع سنوات محجوراً عليه . فلما أن توفي السلطان ، أطلق سراحه ، فعاد إلى مصر . وتوفي فيها سنة ٩٤٥ ولم يُروَ شيء من الشعر لغيره من الخلفاء العباسيين المصريين .

والمتوكل وقد ضمنه قول الطغرائي :

لم يبقَ من مُحسن يُرجى ولا حَسنِ ولا كريم إليه مُشتكى حَزَني

وانما ساد قومٌ غيرُ ذي حَسَب ما كنت اوثر أن يمتدّ بي زمني

* * *

هذا ما اتصل بنا من شعر الخلفاء العباسيين ، بعد أن امتد بنا نفس الكلام إلى أبعد ما كنا قصدنا له . وما أردنا من الشروح ، وان طالت حواشيها ، إلاّ أن نرسم صورة سياسية وأدبية للخلافة العباسية وأصحابها من الخلفاء ، تكشف لنا عن بعض نواحي حياتهم ، وما كان من إدارتهم وسياستهم وأنه كان في المتأخرين منهم — أيامَ ضَعفهم وذُلهم — إلى جانب الضعيف والمستكين — كما كان في صدر دولتهم — أيام عزهم وسؤددهم — القوي والمتين ، والجبار والعنيد . والتقي الأمين . أمثال الناصر(١) ،

(١) كان الناصر (مولده سنة ٥٥٣ — خلافته سنة ٥٧٥ = ١١٨٠ م — وفاته سنة ٦٢٢ — ١٢٢٥ م) من عيون الخلفاء : صاحب مكر ودهاء ، طالت أيامه : « وكانت غُرةً في وجه الدهر ، ودُرة في تاج الفخر » دخل في طاعته من كان من المخالفين ، وذلت له العُتاة والطُغاة وكانت لا تخفى عليه خافية من أحوال الرعية . يطالعه أصحاب أخباره بكبريات الأمور وبجزئياتها . ويبعثون إليه من أطراف البلاد بأحوال الملوك ، الظاهرة والباطنة . بلغ من أمره ، أن رجلاً ببغداد ، عمل دعوة ، وغسل يده قبل اضيافه ، فطالعه بذلك صاحب أخباره . فكتب في جواب ذلك : —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والظاهر (١) ، والمستنصر (٢) ولكن ماذا يستطيعه الآحاد في خلافة تغلغل فيها الفساد ، فنخر السوس في أصولها ، ودب الضعف فالاضمحلال في أجهزتها وفروعها ، لضعف السواد الأعظم من تلك الزمرة المتأخرة من خلفائها ، وسوء سياستهم وسيرتهم . فأدبر أمرهم ، والأمر إذا أدبر فلا رادّ له . بل الإدبار يُعدى ، على ما قاله نصر ابن شَبَث العقيلي (٣) .

ـــ سوء أدب من صاحب الدار ، وفضول من كاتب المطالعة .

وكان إذا أراد أن يولي أحداً عملاً من أعماله ، أشاع ذلك أولاً ، ثم انتظر ما يأتيه به عنه أصحاب أخباره ، مما له وعليه ، فاذا غلب صلاحه ولاه ما هو صالح له ، والاّ صرف رأيه عنه .

وهذا غاية ما يكون من حسن الادارة ، وبعد النظر في سياسة الرعية ، والسهر على مصالحها ورعاية شؤونها . ومع هذا فقد كان مائلاً للظلم والعسف ، حتى فارق أهل البلاد بلادهم ، وأخذ هو أموالهم وأملاكهم .

(١) الظاهر (مولده ٥٧١ ـــ خلافته سنة ٦٢٢ = ١٢٣٥ م ـــ وفاته ٦٢٣ = ١٢٢٦ م) . كان ورعاً محسناً . قيل فيه : إنه أظهر من العدل ، ما أعاد سُنة العمرين . وردّ من الأموال المغصوبة ، والأملاك المأخوذة شيئاً كثيراً .

(٢) والمستنصر

لم يكن أقل من أبيه الظاهر عدلاً في الرعية ، ونصرة للإسلام ، وحفظاً للثغور ، وفتحاً للحصون على قِصَر أيامه .

(٣) ثار نصر على بني العباس في آخر القرن الثاني . وقويَ أمره بالجزيرة ، وكثر جمعه . وحصر حرّان . وأتاه نفر من شيعة الطالبيين ، فقالوا له : ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما ضعف الدولة العباسية ، فتفككها ، فانحلالها . فقد يكون من الأسباب الرئيسة في ذلك .

١ — طول عهدها حتى ملّ العربُ والمسلمون وجهها على سوء حالها في أواخر أيامها .

٢ — ما تقدم مما ذكرناه من أحوال جمهرة الخلفاء المتأخرين ، وسقوط همتهم ، وسلوكهم بعض مسالك السُوقة والسِفلة . (١)

— وترتَ بني العباس ، وقتلت رجالهم ، وأعلقت (دفعت) عنهم العرب ، فلو بايعتَ لخليفة كان أقوى لأمرك .!

فقال : من أي الناس ؟

قالوا : تبايع لبعض آل علي بن أبي طالب !

فقال : أبايع بعض أولاد السوداوات ؟

فيقول هو خلقني ورزقني .

قالوا : فبايع لبعض بني أمية !

قال : أولئك قد أدبر أمرهم . والمدبر لا يُقبِل أبداً ... ولو سلّم علي رجل مُدبِر لأعداني إدبارُه . وإنما هواي في بني العباس . وإنما أحاربُهم محاماةً عن العرب ، لأنهم يُقدمون عليهم العجَم .

(١) يقول ابن الأثير : وكان العباسيون — عدا البيت القادري — يخالطون العامة في البلد ، ويجرون مجرى السوقة ، فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم ، لم يكن له ذلك القَبول ، ولا تلك الهيبة .

وينقل السيوطي عن ابن فضل في المسالك ، في ترجمة الواثق بالله ابراهيم : « وعهد إليه جده ، ظناً أن يكون صالحاً ، أو يجيب لداعي الخلافة صائحاً . فما نشأ إلاّ في تهتك ، ولا دان الاّ بعد تنسك (!) أُغوي بالقاذورات ، وفـَعـَل ما لم تدع إليه الضرورات ، وعاشر القـَتـَلة والأرذال ، وهان عليه من عِرضه ما هو باذل . وزُيّن له سوء —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ ــ خيانة عمالهم وولاتهم وقوادهم ، الذين كان الكثير منهم يظهرون الإسلام ، ويبطنون الخيانة والكفر ، والعمل على هدم الخلافة الاسلامية ، والعود إلى المجوسية ، واليهودية والنصرانية .

٤ ــ استبداد مماليكهم وأمرائهم عليهم ، في أمور المملكة ، إلى أن صيروهم ، « أسماء بلا مسميات ، وصوراً هيولى ، يتصرف بها في المحو والاثبات . »

وبلغ الأمر أن صار السلاطين يصادرون الخلفاء في أموالهم ، وأثاث دورهم ! يولون الخليفة ساعة يرضون عنه ، ويخلعونه ساعة يغضبون عليه . ثم ينهون حياة الكثيرين من الخلفاء بالسَمّ والسَعْل والقَتل .

وبلغ الأمر من الأخلوقة أن كان بعض عمال الخلفاء ، يضمّنون المدن للصوص ، على مال مقطوع ، يؤدونه كل عام .

يضاف إلى هذا الذي هم جناته ، وعليهم تقع تبعته ووزره ، أسبابٌ أخرى انتهت إليهم إرثاً عن آبائهم ، فكانت من العوامل المُضعِفة للخلافة ، فالقاضية عليها بالاضمحلال فالضياع ، عوامل لم يكن للمتأخرين يدٌ فيها .

فالدولة والأمة لا تعيش إلا إذا كانت لها وحدة تشد أطرافها بعضها إلى البعض . فتأمن معها غائلة التصدع والتفكك . فهل كانت للدولة العباسية مثلُ هذه الوحدة ؟

ــ عمله فرآه حسناً ، وعَمِي عليه فلم يرَ مسيئاً الا" محسناً ، وغراه اللعب بالحمام ، وشَرى الكِباش للنِطاح ، والديوك للنِقار . والمنافسة في المعز الزرائبية الطِوال الأذان . وأشياء من هذا ومثلِه ، مما يُسقط المروءة ويثلِم الوقار ، وانضم هذا إلى سوء معاملة ، ومُشترى سِلَع لا يُوفي أثمانها ، واستئجار دور لا يقوم بأجرها ، وتحيُّل على درهم يملأ به كفه ، يجمع به فمه . وحَرام يُطعَم منه ويُطعِم حرمه . حتى كان عِرضة للهَوان ، وأكلُه لأهل الأوان » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قامت الدولة الأموية على نزعة قومية هي العصبية العربية . فنازعها العباسيون المُلْكَ بدعوى أنهم أمسّ برسول الله رحماً . وأعلنوها حرباً شعواء على العرب والعربية .

يقول السفاح لأبي مسلم ما معناه واحسب أنه لفظه :

« اقتل من شككت فيه ، وان استطعت أن لا تدع بخرسان من يتكلم العربية فافعل . »

ومعنى هذا أنهم عدلوا عن السياسة العربية إلى السياسة الاسلامية .

وهي سياسة أوتيت من جهتين :

ان دعوى القرابة مردودة بالطالبيين ، الذين ما فتئوا يطالبون بالخلافة وأنهم أقرب إلى رسول الله ، فهم أولى بالخلافة من العباسيين (١) .

الثانية أن السياسة العباسية لم تكن سياسة اسلامية آخذة بسنة الرسول ، ولا بسيرة الخلفاء الراشدين ، وانما كانت سياسةً كسياسة الأمويين ، وسائر رجالات الدول في جميع الأمم من متقدمين ومتأخرين — الوصول إلى الحكم والاحتفاظ به .

لذلك كثرت الثورات عليها . في الداخل من عرب وترك وفرس وديلم ، ينشئون الدول مستقلةً عن الخلافة استقلالاً يكاد يكون تاماً ، أو مرتبطة بها ارتباطاً وهمياً . وكانت ثورات العلويين من أشد الثورات وقعاً مادياً ومعنوياً .

---

(١) قال الرشيد يوماً لبعض جلسائه :

بلغني أن العامة يظنون فيّ بغض علي بن أبي طالب ، ووالله ما أحبّ أحداً حبي له ، ولكن هؤلاء (يريد العلويين) أشدّ الناس بغضاً لنا ، وطعناً علينا ، وسعياً في فساد مُلكنا ، بعد أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم ما حويناه . حتى أنهم لأميلُ إلى بني أمية ، منهم إلينا ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لذلك عاشت الدولة العباسية في وضع متبلبل متضعضع لا رابطة قومية عربية ، ولا رابطة اسلامية صحيحة . حفظت وحدتها القوة ، فلما منيت بالضعف ، ذهب بوحدتها .

يقول المؤرخون : وفي دولة بني العباس ، افترقت كلمة الاسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك في الديوان . واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم ، يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر » .

ويقول آدم ماز (Adam Mez) أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (بازل) بسويسرة :

« ان الفرق الكبير بين الامبراطورية الإسلامية ، وبين أوربة ، أن هذه كانت كلّها على النصرانية ، في القرون الوسطى ، على حين كان في الامبراطورية الإسلامية عدد هائل من أصحاب الديانات الأخرى يعيشون بين المسلمين . أولئك هم « أهل الذمة » الذين كان وجودهم حائلا بين شعوب الإسلام ، وبين تكوين وحدة سياسية .

واستند « أهل الذمة » في بقائهم ، وفي تمتعهم بما كانوا يتمتعون به من حرية دينية ، الى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ، وما منحوه من حقوق ، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين .

وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل « دار الإسلام » دائماً غير تامة التكوين » .

ويقول فازيليف الروسي في كتابه « العرب والروم » :

« ووضع الاكليروس المسيحي كتباً أريد إيصالها إلى أيدي المسلمين تعلي من شأن المسيحيين ، وفيها طعن خفي في دين المسلمين » .

هذه العوامل كان كل منها منفرداً كافياً للقضاء على الوحدة في الدولة العباسية فكيف بها مجتمعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وينضم إلى هذه الأسباب ، الزواج بالأجنبيات وهو زواج كان يطلب المتعة ، لا للنسل ، على غير ما كان في سياسة العرب أيام منعتهم في جاهليتهم ، وأيام صولتهم في صدر الإسلام .

(انتهى) عارف النكدي

لاحقة :

الأبيات المطربة :

أرض مربعة حمراء من أدَم . . . . .

التي نسبناها إلى المأمون ، اعتمادا على السيوطي ،
ورأيناها بعد ، في كتاب « ترتيب الدول » منسوبة إلى علي بن الجهم .
وهي أبيات أخلق بشاعر كعلي بن الجهم ، منها بخليفة ـ ولو أنه المأمون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net